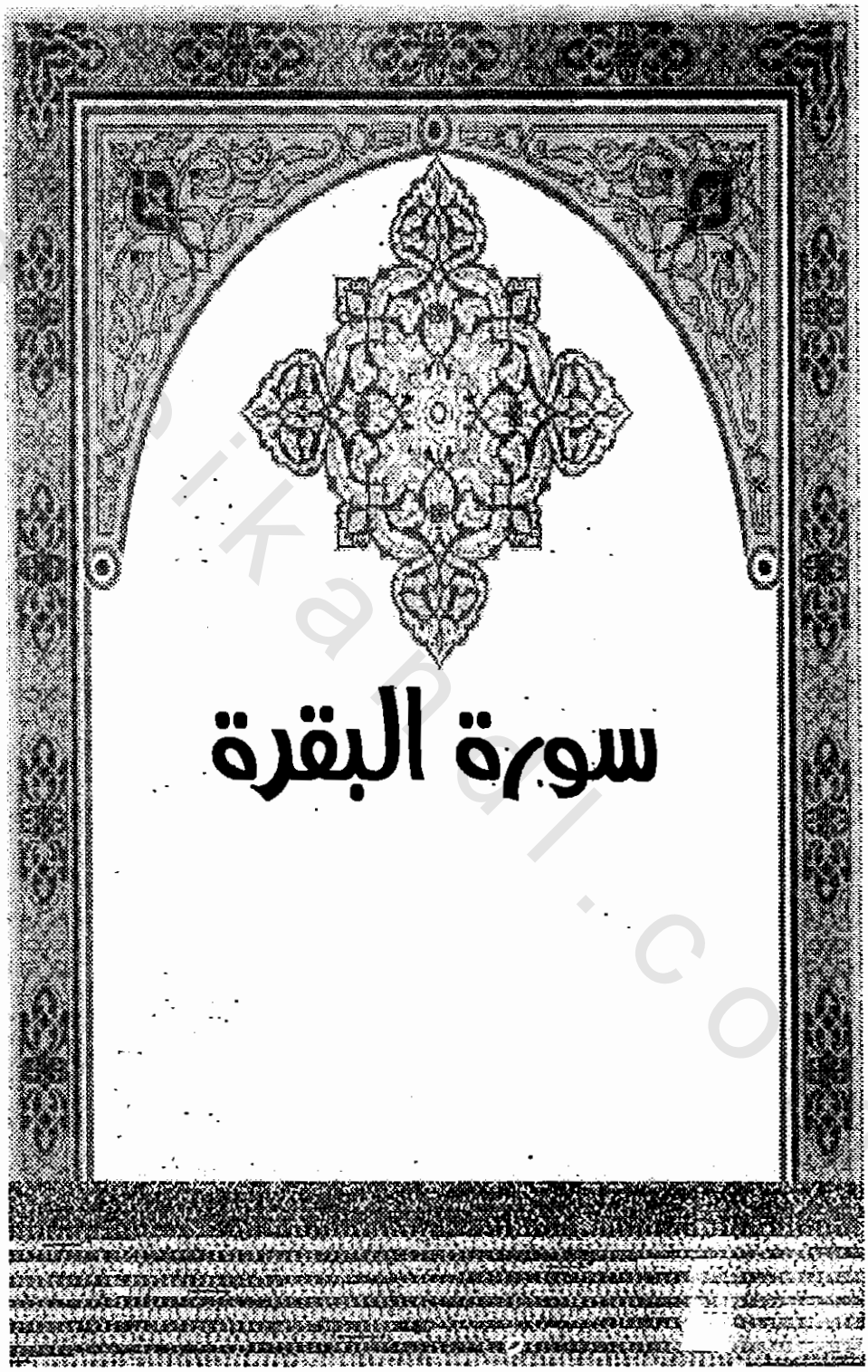
سورة البقرة

obeikandl.com

﴿ سـورة البقـرة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾ ﴾

والغيب هو كل ما وراء طور الحس والعقل والخواطر ولذلك أخبرنا المعصوم ﷺ عن هذا بقوله: ((**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**)).

وقال الحبر الأكبر مولانا عبد الله بن عباس ﷺ: ليس فى الآخرة من الدنيا سوى الأسماء.

فالصراط الغيبى مهما يوصف لنا بالطرق الشرعية وغيرها ليس كمن رآه من الأنبياء والعارفين ببصيرته وعين قلبه كنبينا ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج فإن هذا العارف الأكبر أعنى سيدنا محمداً ﷺ قد دخل المصنع وعاين الصانع وما يصنعه فى داخل البوتقة الإلهية وهذا لم يكن إلا لسواه ﷺ.

ومن النبيه الذكى سوى من يُتَرْجَمُ له الغيب واقعاً فيراه بروحه وبعين قلبه، يقول الصديق الأكبر مولانا أبو بكر عن هذا المقام رضوان الله عليه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقين، ويقول الإمام عبد الوهاب الشعرانى ﷺ متحدثاً عن هذا المقام فى كتابه المنن: وما منَّ الله تعالى به علىَّ أننى رأيت مقعدى فى الجنة وقصورى وبساتينى وما أعده الله لى وأنا فى الدنيا قبل انتقالى إلى الدار الآخرة.

فهؤلاء هم العمالقة الذين انكشف لهم الغطاء قبل مغادرة الدنيا، وليست تلك الطبقة السفلى التى ينكشف لها الغطاء بعد الموت والتى

قيل لها: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

إن الذين كفروا أى حُجِبُوا عن معرفة الله تعالى وذاقوا ذل الحجاب والرق فحينذاك لا ينفع فيهم الإنذار من عدمه.

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾

استعراض للصفات المكرية القذرة المتردية فى ذوى الطينة الجهنمية من الكفار والمنافقين، وقوله فى قلوبهم مرض أى المرض الأصلى الذى هو موجود فى الطينة والجبلة الذى انجبلت فيه الطينة منذ ألست بربكم، ثم لما انبثقوا إلى عالم الشهادة بهذا المرض الأصيل فيهم، ورأى الحق تعالى فيهم الخداع الذى ظنوا أنهم سيخدعونه به زادهم الحق تعالى خداعاً إضافياً مستجداً على الصفة القديمة الأصلية فيهم منذ ألست بربكم، وهى من صفة المكر القديم، ولذلك سمى نفسه سبحانه بأنه خير الماكرين.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۝٢٩ ﴾

فجميع المواد الأصلية التى تتولد منها المخترعات القديمة والمستحدثة، هى كامنة فى الأرض بحيث لا يراها من هو على ظهرها إلا فى وقت ظهورها المعلوم الذى أراده الله لها فى الظهور. فالكهرباء كامنة منذ آدم فى الأرض ولما جاء وقتها المعلوم زال

حجابها وظهرت، ولو علم الأوائل بكمونها وكيف أنهم لم يطلعوا عليها برغم مرورها بزمنهم، ولكن قدر الحق تعالى لهم أن يعيشوا أزمنتهم فى ظلام دامس ولم تكتمل لهم تلك النعمة واكتملت لنا نحن فى هذا الزمان.

فالكون فى غناء تام عن الله بالله وإلى هذا أشار الشيخ الأكبر فى بداية كتابه فصوص الحكم بقوله: الكون مستغنٍ بالله عن الله.

وقد أطلنا شرح هذه القضية فى كتابنا المسوم بفناء اللوح والقلم فى شرح فصوص الحكم.

واعلم رحمك الله بفضل منه أن كل المخترعات التى على ظهر الأرض خارجة عن العناصر الأربعة التى هى: الماء والهواء والتراب والنار، فمهما ظهر من هذه الاختراعات فهى من هذه العناصر، والتى قد اتفق القدماء على أنها أركان الحياة على ظهر الأرض.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وقول الحق للملائكة ليس قولاً من باب الاستئذان وإنما من باب إعلاء قدر هذا الخليفة الطينى المذنب.

وكيف عرف الملائكة معائب بنى آدم قبل أن يُجْعَلَ منهم خليفة من قبل الحق سبحانه وتعالى؟.

هل هذه المعرفة بقبائح بنى آدم من قبل إعلام الحق لهم بقبائحهم أم علموها من اللوح المحفوظ.

وكيف يحكم الملائكة على هذا الخليفة بأنه مفسد قبل نزوله إلى دار التكليف وظهور الفساد منه ؟.

ففاجأهم الحق تعالى بأنهم حتى لو علموا هذه الجزئية من فساد بنى آدم من باب علم الغيب الجزئى فإنه سبحانه وتعالى علم من باب علمه الكلى الغيبى ما لا يعلمونه هم من أفضلية هذا الخليفة على الملك المنزه المعصوم عن خطايا هذا الخليفة، فالحق فضله على هذا المعصوم برغم خطأه الذى صدر منه.

فسبحان من فضل النقائص على الكمالات، وسبحان من قبل المخطئ على المصيب، وصدق الصادق الأمين ﷺ عندما قال:

((والله لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر الله لهم)).

وأعجب من هذا كله ما نقله الشعرانى رحمه الله فى كتابه اليواقيت والجواهر فى الباب الحادى والثلاثون أثناء كلامه على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: وكان الشيخ أبو مدين يقول: لو كنت مكان آدم لأكلت الشجرة كلها.

وفى رواية أخرى: لو علم آدم حين أكله من الشجرة ما يؤل إليه أمره من الخير لأكل الشجرة كلها.

أقول: نعم وهذا ما قصده الحق سبحانه بقوله: إنى أعلم مل لا تعلمون.

وانظر إلى قول جبريل عليه السلام كاشفاً عن مقام الملك ومقام البشر– النبى ﷺ – فى حادثة الإسراء والمعراج **((والله لو تقدمت خطوة واحدة لاحترقت))** .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا لكى يعلم السابق واللاحق شرف هذا الخليفة الربانى وبأن الحق تعالى علمه ما لم يعلم الملائكة المقربين، وبأن الملائكة هناك من هو أشرف منهم وهم بنو البشر وإلا لما أحرجهم سبحانه وتعالى وأسجدهم لهذا الخليفة الربانى وأعلمه بالأسماء المكنونة التى لم يكونوا هم على علم بها فقال لهم على وجه التعجيز لهم:

﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؟.

وهم لم يكونوا محقين وإلا لأخبروه بتلك الأسماء الكلية التى لم تكن إلا عند هذا الخليفة الظاهر الباطن.

وكانت الحقيقة المحمدية هى عين تلك الأسماء، تلك الحقيقة التى لا يفوقها حقيقة هدائية، ودائرتها الإحاطية أقوى وأبلغ من دوائر الملائكة، فمن هم الملائكة بجوار سيدنا محمد ﷺ ؟.

فالحقيقة أن آدم هو محمد، لأنه كامن فى ظهر هذا السيد الأب، متنقل فى ظهره، فكان أصل السجود لتلك الحقيقة المحمدية الصرفة، والفاهم من أفهمه الله والموفق من قطع جذور إبليس والهوى، من

فؤاده وانتصر ونصر الله فى حضرته لا من خذل نفسه وتجاهل مولاه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وآدم فى حقيقته هو الإنسان الكامل، الذى انطبعت فيه الصفات والأسماء الإلهية، لكونه على الصورة الحقية وهو عنوان الألوهية فى الخلافة والإنابة والمحظوظية، يقول الصادق المعصوم فيما رواه مسلم عنه فى صحيحه ﷺ ((**خلق الله آدم على صورته**)).

فالعبد الربانى هو الساجد فى الحضرة لمولاه لا العابد والساجد لهواه "**إبليس**".

فكم من مصل وهو مصل لهواه ساجد له غير قاطع لجذوره.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقصد جنه الهوى والنفس والتخييل والزخرفة والتمثيل والتصوير الإبليسى، وإلا لما جمع معه إبليس فى تلك الحضرة، وفى الحديث الشريف ((**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**)).

فاجتمع فى تلك الحضرة آدم وحواء وإبليس، فكان الملعون هو ثالثهما.

والقول فى الحديث مطلق ولم يحدد الزوجة من عدمها بل قال

بامرأة، فلم يستثن ــ زوجة الخالى، إلا لمن ذكر الله فى تلك الخلوة، فإن الشيطان يخنس ويصبح مكره معطلاً، وهنا آدم نسى نصيحة الله ولم يتذكرها فى تلك الحضرة وانساق وراء زوجته وإبليس، فكانت تلك الحضرة خالية من ذكر الله ومن ها هنا حدثت الخطيئة وتم الهبوط والنزول إلى ما لا تحمد عقباه.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

اعلم أن بنى إسرائيل اتخذوا العجل بعد أن هداهم الله عز وجل على يد موسى واتبعوه وذلك لغلظ حجابهم وكثافة أرواحهم، ورحم الله أبا على الدقاق لما قال: إن أقرب المقامات إلى مقام سيدنا محمد ﷺ هو مقام موسى عليه السلام، ولو ذكر موسى فى القرآن بقدر ما ذكر لكان القرآن كله فى موسى.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

اعلم أن التوبة كانت عند بنى إسرائيل بقتل النفس، وهى بخلاف توبة هذه الأمة المحمدية التى تكون بالاستغفار اللسانى فقط مع الإصرار عن الإقلاع، ذلك ليعلم الناس شرف هذه الأمة المحمدية على غيرها من الأمم.

وحقيقة هذا أنه لا دخول لمخلوق لحضرة الله إلا بقتل النفس، فخاطب الحق سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بالموت المباشر، الذى

سقطت منه الكناية التعبيرية ، وهو حقيقة الموت، وأما هذه الأمة المحمدية فخاطبها الحق سبحانه بالكناية ترفقاً منه وإكراماً لأجل سيدنا محمد ﷺ، فشتان بين من خوطب بالتصريح وبين من خوطب بالكناية.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

الخطاب فى حق بنى إسرائيل وهم يمثلون النفس الأمارة التي تهجر ما يصلحها إلى ما يفسد مزاجها ، فطالبوا موسى عليه السلام باستبدال المن والسلوى بالثوم والبصل وما دنئ من الطعام والأكل.

فإن موطن النفس هوالدناءة والخسة قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾، فهى دوماً ترتد إلى وطنها الأول ، فتترك الحسن إلى السئ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير.

قال أبو يزيد البسطامى ﷺ: كانت نفسى تسوقنى فلم أزل بها حتى سقتها إلى حضرة ربها .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴿٦٧﴾ ﴾

أى اذبحوا أنفسكم ، وتخلوا عن تلك الأهواء التى ركبتم وادخلوا إلى حضرة الله خالين من الهوى والكبر .

وقد أشير فى الحضرة إلى النفس الأمارة البشرية التى طولبوا أن يذبحوها بالقرة فافهم.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

هو تعبير إلهى عن مدى قوة الصفة القبيحة ومدى رسوخها فى الذوات التى ركبت فيها، حتى مثلت الحضرة بأن هذه القوة أشد من الحجارة، التى قد تحن فتتشقق فيخرج منها الماء وتتفجر منها الأنهار.

ويقول سبحانه فى موطن آخر: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾، فإن مكر الصفة الإلهية المركبة أشد من ثبات الجبال كثباتها فى الذوات، فالصفة لا تزول من الذوات والجبال قد تزول من مواطنها.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ ﴾

فويل للعدم ويد الحدث إن قلدت الكلام القديم ومزجته بصفة الحدث الكاذبة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾

اعلم أن تأييد عيسى عليه السلام بروح القدس هو إعطاؤه اسم المحيى والمبرأ، يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ

ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾.

وهذا السر هو الذى من أجله أله النصارى عيسى بن مريم عليه السلام، وليس هو من مجهود الآدمية فى شئ، بل هو من مقتضيات الألوهية وشؤونها، فهى المحرك الأصلى لفعل العارف وما يخرق به العادة، وقد أعطى من هذا السر شئ لأولياء الأمة المحمدية، فقد حكى عن العارف الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى ﷺ أنه أحيا دجاجة كانت بين يديه.

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

غلف أى غلفت بالحجب المانعة من رؤية الصواب من الحقائق، وذلك لاستيلاء الظلام على تلك القلوب، وذلك لسقوط تلك القلوب من عين الله عز وجل، فكيف تحيا قلوب غلفت لكى لا تعرف شيئاً عن الله ولا عن معرفته وأسمائه وصفاته ؟ فهذه هى القلوب المعلولة، التى حطمتها العلة القاتلة، وأرهقتها الغبرة والقترة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴿٩٣﴾ ﴾

وهو أسوء أنواع الإيمان، لكونه إيماناً زائفاً، لم تقله فيهم قلوبهم، وإنما قالته ظاهر الألسنة، وذلك لخوفهم من الجبل الذى فوقهم فافهم، ولذلك وصفهم الحق سبحانه فيما بعد بأنهم أشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم.

﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم

بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى لم يفد فيهم رفع الطور فوقهم بالتهديد والوعد والوعيد لكى يؤمنوا، وذلك لاستيلاء المرض القلبى على ذواتهم، من محبة العجل حيث أشربوا ذلك فى قلوبهم، وهو شرب ظلمانى قاطع عن حضرة الله تعالى، لا يفيد معه رفع جبل ولا غيره هذا لكى يعلم العقلاء والعارفون بالله أن الهداية القلبية لا تأتى بالتهديد والقوة، وإنما تأتى بأمر إلهى خالص، ولذلك قيل من الحضرة لسيد الخلق ﷺ: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾.

﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

أى لو صح إدعاؤكم ودعواكم من نحو حب الله والدار الآخرة كما تقولون لتمنيتم قتل الهوى النفسى فيكم، وهو المعبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾، وهو ميزان حساس فى درجات الاختبار، لكى يقم العبد فى موقف مواجهة مع النفس.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وذلك لأن الروح الكافرة لا تبحث سوى عن لذتها ومتعتها وتتهرب من مواطن التكليف والإيمان، فهى روح عمياء، فرأت أن طول العمر يجعلها تهرب من لقاء حضرة الله واقتراب الحساب، فحرصت على

هذه الحياة الدنيوية الزائفة كى تنجو مما ينتظرها، ولذلك تجد فى أوربا أن أعمارهم تطول، وبرغم هذا ترى المرأة منهم والرجل ابنا الثمانين يرتدون ما لا يحمد ولا يليق من الثياب الخليعة برغم كبر السن، وتراهم هكذا عندما يأتوا سائحين إلى بلادنا، وترى المرأة منهم ابنة التسعين وقد وضعت الأحمر والأخضر من الماكياج فى وجهها، حباً فى الدنيا .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

أى من عادى أحبابى فقد عادانى أنا، وجبريل هو رسولى إلى أعزائى وأحبابى من المرسلين والنبيين، وكفاه جبريل شرفاً بهذه الآية التى قيلت فيه من حضرة الحق عز وجل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى أنه ﷺ هو عين الوجود وغير محتاج لتنبيه فى أن يراعيكم ويرعى أحوالكم، فهو ﷺ أكبر من هذا التنبيه ، فهو الذى ينبه ولا ينبهه أحد، فلا تخاطبوا حضرته المنزهة ﷺ بهذا الخطاب الذى لا يليق بحضرة الحقيقة المحمدية والمرتبة الأحمدية .

أقول وفى هذا تنبيه للعارف المترفع فى أن يتنزه عن تقليد خطاب العوام وأهل الحجاب فى خطاب الحضرة المحمدية، كمن يناديه ﷺ

من وراء الحجرات باسمه المجرد فيقول له : اخرج لى يـا محمـد، وكمن يقول له: راعنا أو راعنى، فإن كل هذا سـوء أدب معـه ﷺ، ومن أجل هذا الخطاب الذى لا يليق بحضرته الأقدسية ﷺ أنزل الحق سبحانه سورة خاصة بهذا الموقف وسماها سورة الحجرات، وهو من مقام: أريد أن أخلق العالم من أجلك يا محمد.

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

هذا لكى يتحقق الـسالكون والعـارفون مـن أن الاختيـار الإلهـى الاختصاصى بهذه الرحمة الناشئة من الجناب الرفيع، لا تدخل فيهـا لبد مخلوق بشئ ، وهذا لكى لا يغار العارفون من بعضهم الـبعض، إذا رأى أحدهم لأخيه فضلا عليه فى المرتبة والمقام، ولهذا لما قيـل لأبى السعود بن شبل: إن الله قد قسم التصرف فى الوجود بينك وبين محمد القائد قال تركت سهمى له ،تركنا الحق يتصرف عنا.

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

لا يوجد نسخ فى علمه عز وجل، لاطلاعـه سـبحانه علـى العلـم الأصلى القديم الممكن فكيف يناقض بعضه بعضاً؟ أو ينسخ بعـضه بعضا؟ وإنما كان النسخ فى حق المخلوقات فقط، أما فى حقـه هـو سبحانه فيستحيل عليه النسخ، ولما علم سبحانه الضعف الآدمى رحمه من باب ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ فنسخت المكانة ما رأته مرهقـاً

وصعباً فى حق هذا العدم الطينى الحدثى، وخير دليل فى علمنا هذا هو مراجعته ﷺ لربه فى أن يخفف الصلوات الخمسين حتى صارت خمساً، فإن الخمسين أصعب ما يكون فى حق هذا الحدث الفانى الضعيف فافهم، والأمثلة أكثر من أن تضرب فهى كثيرة وطويلة.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

يطالبنا الحق سبحانه بالتأدب مع الأنبياء فى السؤال يقول نبينا محمد ﷺ **((ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شئ فاجتنبوه))**.

وهذا قاله ﷺ بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل: أكل عام يا رسول الله ؟

فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً، ثم قال عليه السلام: **((لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم)) ثم قال ﷺ: ((ذرونى ما تركتكم)) الحديث.**

ولهذا قال أنس ﷺ: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شئ فكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة كلها فى القرآن يسألونك عن الخمر والميسر ويسألونك عن الشهر الحرام ويسألونك عن اليتامى وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ قال: قال رجل: يا رسول الله لو كانت كفارتنا

ككفارات بنى إسرائيل ؟.

فقال رسول الله ﷺ: ((**اللهم لا نبغيها ـ ثلاثاً ـ ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت خزياً له فى الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزياً فى الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل**)).

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فهؤلاء أهل الظلم والظلمات منعوا قطب الوجود ومعدن الحقائق والشهود سيدنا محمد ﷺ من دخول مكة يوم الحديبية حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم: ((**ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده**)).

فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقٍ، وفيه دليل على إقامة جنود الباطل فى الأكوان فى أن يحيلوا بين العارف ووصوله إلى حضرة الله بإقامة المعوقات والحجب المانعة من الوصول إلى تلك الحضرة العلوية القدسية.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

أى أن الجهة لا تحجب الوجود الإلهى عن الظهور فيها وفيما وراءها، فإن حقيقة الوجود الإلهى أنه لا تحده جهة، وقد أقيمت حقيقة

الجهة فى عالم المثال لأهل العجز والقصور العقلى، فأين الله إذن ؟ إنك لا تستطيع أن تقول أين هو؟ إلا قولاً واحداً وهو أنه معى حيث ذهبت، كما قال القرآن المجيد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ويقول أيضاً اللسان الفرقانى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾.

وكما قال شيخنا عبد المجيد الشريف ﷺ: إنك مهما حاولت فلن تستطيع أن تحدد ملك الله، فكيف تستطيع أن تحدد الوجود الإلهى نفسه ؟ وهو سبحانه وتعالى خارج حدود المكان والزمان، وإذا سأل سائل وقال: هل الحق سبحانه موجود فى ملكه الذى نعرفه ؟ أقول له: ملكه سبحانه مخلوق، والمخلوق لا يحيط بالخالق فحاشاه من ذلك أن يحيط به عدم، فالجواب الصحيح أنه سبحانه موجود فى ملكه الذى نعرفه وخارج ملكه الذى لا نعرفه، وبهذا قال العلم الطبيعى الحديث من أن الكون يتمدد، فأين تراه يتمدد ؟.

ولما وقف عقل هذا العارف الربانى عاجزاً أمام هذه القضية تأدب وقال: الله معى حيث أكون.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

بديع السموات والأرض أى خالقهما على غير مثال سبق، بلا تقليد مسبق، ولا استنباط مأخوذ عن مقال مقلد.

ومنه قال أهل العلم للشئ المحدث بدعة.

وكيف يصح فى حقه سبحانه أن يقلد فى ملكه غيره، ولم يكن قبله غيرٌ حتى يقلده، وإنما هو الذى أخرج العماء من ذل الكمون فأكرمه فى طور الظهور بلا تقليد يحتذى به، ولا مثال يقتدى.

فهو سبحانه الذى قلده الرسام فى خلقه ، وضاهاه النحات فى فنه، فكيف يُقلِّد وهو يُقلَّد ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

اعلم رحمك الله أن قراءة أكثرهم بضم التاء وقرأ آخرون بفتح التاء على النهى أن لا يسأل عن حالهم ، وقد روى عنه ﷺ أنه قال:((**ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى؟**)) فنزلت الآية: ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل .

أقول : ان من قال مثل هذا من علماء الظاهر وقعوا في خطأ فادح من وصفهم أبويه ﷺ بالكفر، واحتجاجهم بأن الحديث المروى في إحياء أبويه وإيمانهم به ﷺ ضعيف .

أقول: وهو ضعيف في حقيقة أدواتهم الظاهرية، وأما الحديث فهو صحيح عند أهل الباطن والمعرفة فافهم .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴿١٢١﴾ ﴾

بقراءة الروح والسر، وهي أعلى قراءة عرفها البشر، فإن العارف ليس لسانه هو الذي يقرأ وإنما روحه هو الذى يقرأ ولسره هو الذى يترجم .

ومن أهل المعرفة ممن لقيناهم رجالاً لا يؤبه لهم، حدثني أنه كان إذا قرأ كتاب الله كآية فيها القتال، رأى الصحابة عياناً وهم يقاتلون في المعارك.

وقد صح عن أهل الله كما ورد به الخبر أن أحدهم كان يختم القرآن في اليوم عشرين مرة، وحقيقة هذا الكلام أن أحدهم كان يطوى له القرآن، لكرامته عند الله عز وجل .

وقد رأينا عجائب لا تحكى عن أولياء الله المتحققين بالخطاب القرآني منهم شاب اسمه عادل لقيته تحت بيتي وصعد عندى، وكان يسأل القرآن أمامى والقرآن يرد عليه فوراً، ويقول لى: افتح ترى الجواب فأجده حتى رأيت منه العجب العجاب .

أقول: واعلم أننا ممن تحقق بالخطاب القرآنى له، فقد كان يخاطبنى في أوقات كثيرة في أمور تشكل علىَّ، وفي ذات مرة لما آذاني أحد الجن سمعته يقول لى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾

فلم آبه لهذا الخطاب حتى عاودنى الأذى فسمعته منه مرة أخرى .

ثم عاودنى الأذى فسمعته منه مرة ثالثة .

فعلمت أن هذا الخطاب موجه لى .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

فضلهم على العالمين فى زمانهم، وإلا فإن هذه الآية المحمدية هى خير الأمم على الإطلاق منذ آدم وحتى النفخ فى الصور، كما هو وارد به صريح النص القرآنى بلسان الماضى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ أى ليس فى زمانكم فقط بل أنتم الأفضل منذ ألست بربكم .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي

﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

ابتلاه بقيامه فى مقام النيابة عن الله والخلافة فى الأرض، ولذلك لما أتمهن قيل له من حضرة الله: إنى جاعلك للناس إماماً أى قطباً نائباً ومستخلفاً.

واعلم أن حقيقة هذا الابتلاء الذى أتمه إبراهيم عليه السلام هو تحقق الإنسان الكامل بمجموع الصفات والأسماء الإلهية الواجبة فى حق هذا العبد الكامل.

واعلم أن هذا العبد الكامل يجب عليه إتمام التحقق بهذا الابتلاء شرط الدخول فى مقام الخلافة.

أخبرنا شيخنا وأخونا فى الله العارف صلاح الدين التجانى ﷺ بزاويته بإمبابة قال: إن للأبدال أخلاقاً لا يدخلون فى هذا المقام إلا بشرط التخلق والتحقق بها وإلا فلا دخول.

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

أى عهد إليهما ـ أى إبراهيم وإسماعيل ـ عليها السلام بتطهير البيت ـ أى القلب ـ الذى هو مطاف الحقائق وكعبة تطواف العلوم الإلهية، ثم إن هذا القلب يعكف فى حضرة مولاه بالإنابة والرجوع، ثم يتحقق بالركوع والسجود فى حضرة الحق، فإن العارف المتبتل هو الذى يركع قلبه ويسجد، لا جسده الطينى فافهم.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

ولما نزه هذا الإنسان الكامل قلبه من حدث الكون ومن رين العبودية وقف فى مواجهة الحضرة الإلهية قائلاً: ها قد وضعت أساسات وقواعد بيتك يا الله ــ وإنما أشار إلى حقيقة قلبه بهذا الخطاب .

فهنا وضع العارف الربانى أساسات وقواعد مقاماته وأحواله بتنزيه فؤاده من كل ما يظلمه ومن كل ما يثقله .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

إذ قال له ربه أسلم واستسلم لى ، واترك حولك وقوتك فى حولى وقوتى، وتعالى إلى حضرتى، وادخل فى دائرة لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد أخبر شيخنا العارف بالله الشيخ كمال عمر الأمين ﷺ لما جاء من السودان إلى مصر قال لى: إنه من أصعب المقامات وأشقها ــ أى الدخول فى الحولية الإلهية والتحقق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ــ وقال لى: قد عجزت فهوم العارفين عن الثبات فيه وقصمت ظهور الرجال فى ساحاته .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

أى لا يلحق الأواخر الأوائل بشئ، فكلما تقادم الزمان عزت المعرفة، أخبرنى شيخنا عبد المجيد ﷺ ببيته بعابدين قال : يعز ظهور

أمثال ابن عربى وشيخنا التجانى ﷺ مرة أخرى فى مثل زماننا هذا.

واعلم أنه كلما تقادم الزمان عزت أخلاق الرجال وضعفت الهمم وهبطت مستويات المعرفة، وإذا كان أمثال العارف الشعرانى ﷺ ينكر فى كتابه المنن على أهل زمانه فكيف به لو رأى أهل زماننا هذا ؟ وإذا كان أمثال الحسن البصرى ﷺ قد قال فى أهل زمانه: رأيت أربعين رجلاً من الصحابة لو رأوا أعقلكم لقالوا لا خلاق لهم، فكيف بهذا الحسن البصرى لو رأى من فى زمن العارف الشعرانى من الخلق ؟ بل كيف به لو رأى من فى زماننا نحن من الخلق، فماذا تراه يقول ؟.

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾

السين ههنا فى الفعل للاستقبال، وهى للوعد بوقوع الفعل والحدث فى المستقبل، أى أن كفاية الله لك من سطو الحدث ستتحقق لك آنفاً، وإن لم تكن متحققة لك الآن، وهى من مقامات العزة الإلهية، أى تدرج العارف فى التمكين والرسوخ، حتى يقال له فى نهاية الأمر:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فإن العزة الإلهية تدرج العارف ولا تعطيه حقيقة المقام دفعة واحدة، بل لابد من المرور فيه على مراحل، يقول سبحانه وتعالى فى حق نفسه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فإذا كانت الألوهية تدرجت فى الخلق فكيف لا يتدرج الحدث فى التمكين ؟ مع بعد الفارق بين المقامين الإلهى والخلقى، فالحق حق والخلق خلق.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ

عَٰبِدُونَ (١٣٨) ﴾

أى هو سبحانه الذى صبغ الوجود بصبغته، وختم العالم بطابعه وختمه، يقول سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ويقول الأعرابى: البعرة تدل على البعير والسير يدل على المسير، ويقول الحلاج ﷺ: ما نظرت إلى شئ إلا ورأيت الله فيه.

واعلم أن كل ذرة فى الوجود يرى العارف فيها تحققاً وكشفاً آثار الربوبية، ولا يخلو شئ من صنعته سبحانه منه، فإن الكبار من أهل المعرفة لم يروا فى الوجود سوى الله تعالى، يقول الحلاج ﷺ: ما فى الجبة إلا الله، وربما كان يمر أبو سعيد الخراز ﷺ: فى الطريق فكل ما يصادفه يقول عنه أنه الله، كجدار أو غلام أو امرأة أو غير ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾

الوسط هو لسان الميزان، فلا تجور كفة على كفة، وهو مقام استواء الصفة، وهو حال أهل الجنة فى الجنة، يقول سبحانه:

﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾.

فكان حال أهل هذه الأمة أنها هى الأمة الوسطية، أى الخالية من الميل إلى صفة أكثر من صفة، كما قيل لأبى يزيد ﷺ كيف أصبحت ؟ فقال: لا صباح ولا مساء.

ثم إن هذه الأمة الوسطية التى لا تميل إلى صفة أكثر من صفة جعلها الحق سبحانه شاهدة على بقية الأمم، لعلمه سبحانه أنها من عدم ميلها إلى صفة معينة إلا لسان الميزان، ثم كان أبو القاسم ﷺ هو لسان

الميزان الأعظم الذى جعله الحق سبحانه شاهداً على الكل، فإن صفة الوسطية كانت صفته ﷺ، وحديث الرهط الثلاث هو خير دليل على ذلك، ولا ينبئك مثل خبير.

فقد عارضهم ﷺ بأنه يصوم ويفطر ويقوم الليل وينام ولا يعتزل النساء ثم قال لهم: ((**فمن رغب عن سنتى فليس منى**))، أى من رغب عن وسطيتى فليس منى فى شئ.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴿١٤٣﴾ ﴾

أى حولنا قلوب العارفين لأجلك يا محمد، ونقلنا توجهاتهم المكانية من أجل مكانتك يا أحمد.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أى لن نترك وجهك يتقلب يا محمد فى صفحات الوجود من أجل الجهة فمقامك أعز من أن يتعلق بالحدث، بل سنخرجك من تلك الحيرة بتعيين وجهتك، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾.

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴿١٤٤﴾ ﴾

لما علمنا حبك وتعلقك يا محمد بالوطن الأصلى وهو مكة، نقلنا أنظار العارفين إليه، وحولنا قلوب الواصلين حواليه، وذلك بالتوجه إليه فى صلواتهم، وبالأنس إليه فى جلواتهم وخلواتهم، وقلنا لهم من لسان الأزل منذ ألست بربكم:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾ ﴾

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أينما تكونوا تأتى بكم أصابع القدرة، وتجمعكم عجائب المقدرة، فأين تذهبون، وأن إلى ربك المنتهى، والله من ورائهم محيط.

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

أى ابتدأ أيها الحدث بذكرك لى كى أذكرك فى حضرتى، ومن ذكرته فقط رضيت عنه، ونهاية الذكر وذروته هو الشكر المجرد، فإنه ﷺ صلى حتى تورمت قدماه برغم أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إلا أنه نسى هذه المغفرة، وقدم هذا الورم شكراً لله عز وجل فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم يعتمد ﷺ على هذا التكريم الإلهى بالمغفرة العامة له، وإنما استحى من ذلك التكريم فقابله بالشكر، الذى أخرجه من جسده كضريبة إلهية يؤديها هذا الإنسان الكامل لربه من باب العبودية الصرفة، والتى كان هو ﷺ خير مخلوق تخلق بتلك العبودية.

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وكيف يموت موت المحجوبين من قتل النفس فيه، وأرجعها إلى حضرة ربها وساقها إلى حانة القدس بعصا المجاهدة، فهؤلاء هم الأحياء الحقيقيون الذين حيوا بإماتة هوى النفس فيهم، فحذرنا الحق سبحانه فقال لنا: ولا تقولوا لمن يقتل، أى تقولوا لهؤلاء الأبطال الذين

قتلوا بأنهم أموات بل أحياء.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

اعلم أن الابتلاء هو من أصول المعرفة الإلهية، فلابد من الابتلاء للعارف، وهو رفيقه إلى حضرة الله، وقد صنفنا كتابنا الكبير كله في هذا الباب بعينه المعروف بتكملة الفتوحات المكية (عروش الحقائق في رفع البلاء عن الخلائق) وهو فريد في بابه فليراجع.

فلابد من غربلة أصول العارف وقواعده قبل الدخول إلى حضرة مولاه، وقد قال سيد الخلق ﷺ: **((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))**.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

اعلم أنه لما تحققت الروح العارفة من أن مرجعها إلى وطنها الحقيقي وأن هذا المرجع هو الله، فأصبحت لا تأبه مما أصابها من تلك الحضرة العلوية، سواء من خير أو شر، لكون تلك الأحوال العارضة إنما جاءت لها من حضرة الحق سبحانه، والتي إليها يرجع الكل، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فتحقق من أهل المعرفة من قال بأن الصلاة الإلهية على غير

الأنبياء من صالحى المؤمنين جائزة، لورود هذه الآية الشريفة، وكذلك لقوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

واعلم أن معنى الصلاة الإلهية على تلك الذوات الحدثية، هو إرادة الحضرة الإلهية تنزيه تلك الذوات وإخراجها من الظلمات إلى النور، كلٌ بحسب مقامه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

اعلم أيدك الله بروح منه أن هؤلاء الأنداد هم أعداء الحضرة الإلهية الأقدسية من النفس والشيطان والهوى وشرار الخلق وكل ما يصد عن الوصول إلى تلك الحضرة المنزهة من الشرك الظاهر والباطن. فأهل البقية لا تزال لهم أنداد تشغلهم من التعلق بحضرة الحق سبحانه وتعالى من الوصول إليها، وأما الذين آمنوا فهم أشد حباً لخالقهم وبارئهم، وذلك بتبرئهم من هؤلاء الأنداد.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

أى ليس البر فى أن تولوا وجوهكم فقط إلينا دون قلوبكم، فإن الحضرة الإلهية قد سئمت من أعمال أهل الظاهر، فأين المتقربون والمتزلفون إلينا بقلوبهم دون تلك التصاوير الواهية، والأجسام المتزخرفة اللاهية.

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذلك لوقف فساد الأعيان والحدث فى الأكوان، فإنه لولا قانون القصاص فى الأكوان لما حيا الكون، فبهذا القانون يقتص الحق سبحانه للضعيف والمظلوم من القوى والظالم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

اعلم أن صيام العارفين إنما يكون عن رؤية الحدث والأغيار فى الكون، فهو صيام عن القواطع الحاجبة عن رؤية الحق عز وجل، واسمه صيام السر، وهو بخلاف صيام العوام، الذى يكون صياماً عن الأكل والشرب والجماع فقط، فهو صيام ظاهرى انقطعت منه صفة صيام الباطن.

أصوم وقد صامت إليك جوارحى عن الغير والأكوان يا غاية الروح

واعلم أن العارفين فى صيام علوى متصل عن كل ما يحجبهم عن حضرة الحق عز وجل، قد ارتقت نفوسهم عن صيام الظاهر.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴿١٨٤﴾ ﴾

هو فى حق أهل الحجاب، وأما العارفون بربهم فهم فى صيام متصل تام لا ينقطع، قد انقطعت عنهم صفة الأيام المعدودات .

يقول شاعر القوم:

وكل الليالى ليلة القدر عندنا كما أن كل أيام اللقا يوم جمعة

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٨٥﴾ ﴾

أما العارفون بربهم فهم فى شهود دائم ومتصل للحق نفسه لا للشهر فأهل الحجاب شهدوا الشهر فى حقيقة رؤيتهم للهلال، وأما المقربون فقد انقطعت رؤيتهم عن مشاهدة الغير والحدث، فهم مشاهدون لرب الشهر والهلال، فكيف يتعلقون برؤية الأغيار؟ ومادام المحجوب قد تعلق برؤية الغير ــ أى الهلال ــ فإن الغير متقلب فى رؤيته وفى إبصاره، وبالتالى فإن رؤية الحدث تغيب وتظهر، وبالتالى فإن من قاس صيامه بما يغيب ويظهر ــ وهو الهلال ــ كان صيامه محدداً بالزمان ــ أى الشهر ــ وأما العارف فقد تعلقت روحه بمن لا يغيب ولا ينقطع وهو رب الحدث والأغيار، وبالتالى فالعارف استمر صيامه بلا انقطاع، لكونه هجر الأغيار المعلولة، وارتقى عن هذه الرؤية القاصرة فى الكون.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

أى قريب ترب ثبوت، فمتى ابتعد حتى يقترب، بل قربه من الحدث وفى الحدث ثابت .

واعلم أن الأمر ليس كما زعمت الوهابية وابن تيمية من أنه سبحانه ينزل فى الثلث الأخير من الليل تنزلاً حقيقياً يدل على خلوه سبحانه وتعالى عما يشركون من تلك الجهة .

واعلم أن عقيدة الأكابر لا زالت قائمة على أنه سبحانه موجود فى المكان وخارج المكان، وهو سبحانه لا يتقيد بجهة ولا مكان، ولا يصح أن يقال فى حقه سبحانه أنه تخلو منه جهة فى الكون، وإلا دل ذلك على تحدده سبحانه وتعالى .

وفى ذات مرة قلت أمام شيخنا عبد المجيد الشريف ﷺ ببيته بعابدين إن الله موجود فى كل مكان فنهرنى وزجرنى وقال: فأين المكان هل تستطيع أن تحدده ؟

فقلت: لا

فقال: إذن قل الله معى حيث أكون .

واعلم أن قربه سبحانه يشهده العارفون تحقيقاً ذوقياً وشهودياً بحيث لا ينقطع ولا يغيب عنهم، فهى رؤية متصلة، يقول الحلاج رضى الله عنه: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه .

ويقول الحلاج أيضاً :

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... إلا وحبك مقرون بأنفاسى

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم ... إلا وأنت حديثى بين جلاسى

ولا هممت لشرب الماء من ظمأ ... إلا رأيت خيالاً منك فى الكاس

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿٢٠٠﴾ ﴾

فذكر الآباء ذكرّ الحق سبحانه به الحدث فهو لأهل الحجاب، أن يذكروه كذكرهم لآبائهم، وهو غاية حبهم.

وأما أهل المعرفة والذوق فقيل لهم: أو أشد ذكرا، وذلك لكونهم تخطوا حب العدم والحدث، إلى ما هو أعلى وأرقى، كما قال قائلهم:

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن د راه غدا بالروح يشريه

وقال آخر:

أموت وما ماتت إليك صبابتى ولا رويت من صدق حبك أوطارى

منـاى المنى أنت لـى منـى يـا صـدق حبـى و أقـدارى

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ثمن، فلابد من دفع الثمن، كما دفعه من كان قبلكم ممن أخرجوا من ديارهم وأوذوا وزلزلوا.

هذا ليعلم أهل الخرقة والصفوة من أهل الله أن الجنة ثمنها غال، حتى كان الرجل من الصحابة وهو يقاتل يقول وهو مقدم على الشهادة: إنى لأشم رائحة الجنة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾ ﴾

أى كتب على أهل الباطن مجاهدة العدو الحقيقى وهو النفس والشيطان والهوى، وهو المشار إليه فى الحديث بالجهاد الأكبر.

وهو بخلاف الجهاد بالسيوف والآلات، فإنه الجهاد الأصغر، وهو ضعيف الشأن والمرتبة بجوار الجهاد الأكبر.

واعلم أن الجهاد الأكبر هو شأن الخواص فقط، فإن الخواص كتب عليهم الجهاد الأكبر، وكتب على العوام الأصغر.

وإنما كان الجهاد سواء الأكبر أو الأصغر فيه كره للمجاهد، لثقله على نفس المجاهد، ومثاله كمثال المريض الذى يتعاطى الدواء المر لكى يستشفى به من المرض.

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

وذلك لانحجاب النفس عن معرفة مصلحتها الحقيقية لكثافة حجابها وجهلها بحق نفسها، فيما يصلحها وفيما يفسدها، ولذلك دعا الأكابر ربهم فى أن يتولى أمرهم بما يراه يصلحهم وبما يمنع فساد قلوبهم وبما يدبره لهم من الأمور والأحوال ففوضوا الأمر لله وتركوه يتصرف فى حق أنفسهم نيابة عنهم

فلا يروا مع فعل الحق فيهم كرهاً ولا حباً، سوى حبه هو سبحانه، أى أن حقيقة هذا العارف أن فنى عن حب الصفة فى حب الموصوف نفسه.

ولذلك لما قيل لأبى يزيد رحمه الله كيف أصبحت ؟ قال: لا صباح ولا مساء.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

اعلم أن حقيقة الخطاب الإلهى ههنا أن الحق سبحانه طالب العارف المنفق أن يعفو العفو الشامل، وأن يتخلق بهذا الخلق الإلهى فى

الأكوان مع مخلوقات الله، فلا يعطى ويمن، وكذلك لا يعطى فى الظاهر على سبيل المفاخرة والتباهى، وكذلك لا يعطى بمقابل، فإن حقيقة العارف أن يعطى ولا يسترد.

وهذا اسمه عفو النية، فلا يتخلل النية شائبة فى عطائها فافهم.

ثم إن الأنفاق قد لا يكون فى نظر الإنسان الكامل فى الإنفاق المادى فقط، بل هو العفو المطلق، فيعفو عمن ظلمه، ويعفو عمن سبه، ويعفو عن كل من تطاول عليه بأى صفة وبأى سمت ورد به الشرع والعرف.

وكان سيد من عفا هو سيد الخلق ﷺ عندما قال لمن ظلمه وآذاه وقاتله وأخرجه من مكة من أهلها ((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)).

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴿٢٢١﴾ ﴾

أى لا تخدعنكم مظاهر الأكوان الكاذبة، ولا تغرنكم زخارف العدم الفانية.

فأمر الحق سبحانه العارف المتبصر أن لا ينظر إلى حقيقة الظاهر فى العبد والأمة بشىء، بل يسبر غوره وبصره إلى ما هو أعمق وأعلى من ذلك، وأن يقيس العبد والأمة بالصفة الإلهية لا بالزخرف الشيطانى فيه، وقد صنفنا فى ذلك كتباً نفيسة مثل: تحذير المؤمنات ارتداء البنطلون الضيق فى الطرقات "،

ومثل: تحذير الحرة من بدعة كشف السرة .

ويقول سيد الخلق ﷺ:((**بلال سيد الحبش**)) فلم تمنعه صفة سواده

ولا صفة الرق والعبودية أن ينال تلك السيادة على من هو حر وأبيض، فنظرت العين المحمدية إلى حقيقة الصفة الأخلاقية فيه، بل ذهبت تلك الحقيقة المحمدية إلى ما هو أبعد فى ترقية هذا الشخص عندما قال له سيد الخلق ﷺ: ((**دخلت الجنة فرأيتك أمامى، فبما نلت هذه المنزلة يا بلال ؟**)) قال: بإسباغ الوضوء على المكاره، ما أحدثت إلا وتوضأت وصليت ركعتين.

فمن هنا تحققت العين المحمدية المبصرة للحقائق حقيقة الرجل، ومن أين نال هذه المنزلة السامية.

فإياك يا أخى أن تنظر إلى حقيقة الناس بألوانهم أو مناصبهم، أوما يرفعهم وما يخفضهم.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

اعلم أيدك الله أن حقيقة المحيض أنه الصفة الحاجبة للعبد عن استمرار المتعة النكاحية، وهى صفة حجابية اختبارية.

وقد أباح الإسلام للرجل أن يعدد تكرار المتعة النكاحية اليومية واللحظية، وذلك بتعدد الأزواج وبالإكثار من اقتناء الجوارى، ولما كانت هذه الصفة ــ أى المحيض ــ مانعة للرجل من المباشرة، فقد شذ أهل هذا الزمان فى الأقطار الإسلامية بالتمسك بالزواج من واحد فقط، وأبت الزوجات على محاربة الزوج الذى يريد أن يعدد، ومن

هنا نشأ كثير من العلل والأمراض في المجتمع، كـ الزواج العرفي والخيانة الزوجية وغير ذلك.

فربما كانت واحدة لا تكفي الرجل، لاسيما أثناء المحيض، فإن هناك من الرجال من لا يستطيع ترك النكاح ولو يوماً واحداً، وقد اجتمعت بمحروسة مصر ببعض الأبدال، وعاب هذا الخلق على المسلمين المعاصرين، ثم قال: لا جوارى ولا تعدد، وواحدة لا تكفي، وأخبرني أنه متزوج سراً بدون علم زوجته، وأخبرني أن بعض الشيوخ كان متزوجاً في السر ولم تكتشف ذلك زوجته إلا بعد موته.

وقد حارب الاستعمار إخراج هذا الكبت الجنسي من ظهور الرجال، بتحرير الرق وإلغائه، وكذلك بإرغام الأكابر من ساستنا وكبرائنا لما خالطوهم على أن يتشبهوا بهم ــ أي النصارى ــ في عدم الزواج بأكثر من واحدة، وانظر رحمك الله إلى ما حدث في بلاد أوروبا من جراء الزواج بواحدة، إلى كثرة خيانة الرجل لزوجته وكثرة خيانة المرأة لزوجها، فانظر عواقب التمسك بزوجة واحدة.

ثم ما لبث باقي المجتمع أن قلد هؤلاء الساسة والأكابر من المسلمين في الزواج بواحدة فقط.

فحقيقة المحيض أنه يمنع الروح المريدة للمتعة النكاحية من استمرار تلك المتعة في الواحدة، فأبدل الإسلام هذا العبد ببدائل أخرى، أتينا نحن ومنعناها، ومن هنا حدث الكبت الجنسي.

ولقد بلغ من مهانة بعض الرجال أن قال: لو تزوجت على زوجتي لدبحتني بالسكين.

وكان شيخنا أحمد بن عمر المعروف بالشريف التجاني ﷺ وأصله من نيجيريا ينكر على أهل مصر هذا الفعل الشائن ويقول: الناس عندنا

فى نيجيريا وأفريقيا كلهم متزوجون بأربع، وأخبرنى أنه متزوج باربع وأن نقيبه متزوج بأربع مثله، ثم قال: نحن نطبق الشرع وأنتم لا تطبقونه فى هذه القضية.

ثم أنشدنى:

تزوج اثنتين تنال عزاً فإن العز بين الزوجتين

فإن ثلثت خيراً بعد خير و إن ربعت نلت الجنتين

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

أى هن حرث روحى لكم، تجنون منه متعة الروح والجسد، وشبه سبحانه النكاح بالحرث، لكون الناكح مثله كمثل الحارث، فإنه يحرث الأرض ويبذرها، ثم تخرج نبتاً طيباً، وكذلك الرحم، فإن مثاله كمثال الأرض من حيث إلقاء النطفة فيه وهى البذرة ــ التى تنشأ الجنين والثمر الآدمى فافهم.

واعلم أيدك الله أن المرأة هى متنفس العارف فى الأكوان، كما حكى ذلك شيخنا محيى الدين فى الفصوص، وهى لازمة لهذا العارف السالك أثناء سيره إلى الله، وقد كان الإمام النسائى رحمه الله لا يستغنى عن المرأة أبداً، حتى كان يحمل معه نساءه أثناء السفر.

ووصف الشيخ الأكبر القطب فى الفتوحات بأنه يحب النكاح ويكثر منه، وإنما أكثر العارفون من النكاح لإزاحة آلام التجليات الإلهية عن ذواتهم، فإن تجليات الحق سبحانه حارقة وقاتلة، والعارف يلاقى ذلك ويلطفه بكل ما هو لطفانى ورحموتى، ولنا خير إمام فى مثل هذه الحضرة ما قاله سيد الخلق ﷺ: **((حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث))** من ضمنها النساء، ولذلك ورد عنه ﷺ أنه كان يطوف على نساء كلهن

بغُسْلٍ واحد كل ليلة، وكن تسع نسوة، والحديث رواه أنس عنه ﷺ.

وقد أخبرنى الشيخ أحمد إبراهيم ﷺ ممن لقيناهم فى طريقنا إلى الله ــ وكان من أهل الديوان ــ قال: إن العارف إذا أتم نكاحه يحس كأنه ولد من جديد، فهو فى ترقٍ دائم بعد كل نكاح.

وكان الجنيد ﷺ يقول: إنى لأجد لذة للنكاح هى عندى أحلى من لذة الذكر.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

لكونه سبحانه أعز من ذلك وأسمى، أن يحلف بالخالق لأجل المخلوق، ولذلك نهى أشياخنا أن يقرن اسم الحق سبحانه فى الحلف بشىء من الحدث ومن متاع الدنيا الزائف الزائل.

وكان هناك أقوام من أهل المعرفة لقيناهم ما رأينا منهم أحداً حلف بالله أبداً طيلة صحبتنا له، لا صادقاً ولا كاذباً، واعلم أن كل ذلك ناتج عن غيرة العارف على من عرفه، وعلى غيرة المحب على المحبوب.

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

أى يا أهل الظاهر وأهل الحجاب.

﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

يا أهل المعرفة والذوق.

فالأولى للعوام والثانية للخواص.

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾

أى فليحافظ هذا العارف الفانى على اتصاله بحضرة ربه دوماً وبلا

انقطاع، وليكرم الصلاة الوسطى وليخصها، كما خصها ربه ههنا، فإن هذه الصلاة ــ أى الوسطى ــ تكون فى أوقات اللهو فى النهار وانشغال الناس بالدنيا، فيجب على العارف أن لا ينسى ربه مثلهم فى هذا الوقت بالذات، وليكن ذاكراً بين الغافلين وليكن حياً بين الميتين.

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴿٢٤٥﴾ ﴾

اعلم أن العارف الربانى وحضرة الإنسان الكامل لما سمع هذا الخطاب من حضرة مولاه استحى منه، فكيف يقرض الحدث الفانى من بيده خزائن السموات والأرض ؟.

فالخطاب إذن ليس للخواص وإنما فى حقيقته هو للعوام، فإن العين العارفة لا تنظر مع المرتبة الإلهية إلى شىء من المضاعفة وإلا لهبطت مرتبة العارف من درجة الخصوصية إلى درجة العوام، فإن العدو الإحصاء والتضاعف ليس هو من شؤون العارف، ولذلك قيل لذلك العارف:

﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

أى ليس من شأنك علم القبض والبسط أيها العارف، لأنه من علم الأحوال، وأنت قد تخطيت الأحوال إلى رسوخ المقامات.

ولذلك قيل الذرة من عمل العارف بأطنان من عمل أهل الظاهر، فإن شؤون العارف مع ربه فى علم المحاسبة كشؤون الربوبية قد تنزهت عن الحس والحد والحساب والميزان والعد والمضاعفة، فإن حقيقة الإنسان الكامل أنه السيد المتخلق بالأسماء الإلهية، فهو المتنزه

عن النقائص .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

اعلم أيدك الله بروح منه أن للحق سبحانه أن يختبر الأعيان بما يراه من الأمور.

فقط يختبر سبحانه ببقرة كما اختبر بنى إسرائيل .

وقد يختبر سبحانه بالقمح كما اختبر آدم فى الجنة بذلك .

وقد يختبر سبحانه بالحوت كما اختبر بنى إسرائيل بمنع صيدها يوم السبت .

وقد يختبر سبحانه أصحاب طالوت بالمنع من شربهم من هذا النهر .

وأعلم أن هذه التحكمات الإلهية فى الاختبار هى من شؤون الغيرة ومن مجالى العزة الإلهية .

فهو سبحانه المهيمن على الخلق وله أن يجربه بما شاء وكيف شاء ووقتما شاء، سبحانه وتعالى عما يشركون .

وكتابنا الكبير المسمى بتكملة الفتوحات المكية قد أشبعنا فيه القول على علم الابتلاء .

ومن عجائب ذلك تخلل علم البلاء إلى الأنبياء أنفسهم وفى ذويهم .

فهذه أم المؤمنين تتهم فى عرضها وحاشاها من ذلك رضى الله تعالى عنها .

فالحق ههنا اختار عرض الأنبياء لإقامة ميزان الاختبار فى

الأكوان، وليس على الأنبياء سوى التسليم لأمره عز وجل.

ثم يصف الحق سبحانه بأن امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما.

وللعزة أن تختار ذلك النوع الابتلائى وعلى الأعيان التنفيذ والاستسلام وقد جرب الحق سبحانه واختبر قوم صالح بالناقة، وهو من شؤون العزة أيضاً.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

اعلم أن علم المدافعة علم شريف وجليل، به تستمر الحياة بين الحدث، واعلم أن الكون يتحرك بهذه المدافعة ويتداوم كما يحرك لاعب الشطرنج القطع التى بين يديه، ولولا مدافعة الحق سبحانه للحدث لحصل له الفساد الكونى، وهناك أقطاب للمدافعة، كان منهم إبراهيم النبتيتى رحمه الله وهو أحد رجال الطبقات الكبرى للشعرانى رحمه الله، حكى عنه عجائب لا تحصى، فمثال ذلك أن إنساناً قال له: ادعو لابنتى هذه ــ وكان يحمل طفلة صغيرة معه فقال له: الله يعدمك إياها فماتت.

وقال له إنسان: ادعو لى فدعا عليه.

وفى ذات مرة رأى رجلاً يحمل جرة من اللبن فأسقطها منه، فوقعت فانكسرت فوجدوا بداخلها ثعباناً ميتاً.

وليس أول دليل على ذلك إلا حكايات الخضر عليه السلام الثلاث التى حكيت عنه فى القرآن، فإن ظاهرها بخلاف باطنها، وكان كل

فعل فى ظاهره يخالف الشرع، وفى باطنه مصلحة لأصحاب القضايا الثلاث.

وحكى الشعرانى أن أحد المجاذيب كان يبيع الحشيش فى باب الخلق للناس، فأنكر عليه الفقهاء ذلك، فقال لهم إنى أبيع الحشيش، وكل من ذاقه تاب عنه وأقلع، فهذه هى وظيفة أقطاب الدفع الإلهى.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

اعلم أن الحياة نوعان:

فالحياة الأصلية للحق فقط سبحانه.

والحياة الثانية هى الحياة المستمدة، وهى لمجموع الكائنات.

ولولا حياته سبحانه لمات الوجود بأسره، فإن من شىء إلا وهو حىٌ به، ميت بغيره، وهو القيوم الحقيقى الذى قام بنفسه وبغيره، فلولاه لا ستحال الوجود عدماً، فهو الحى القيوم بنفسه وبغيره، فسبحان من ليس كمثله شبيه.

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

وكيف للحى المطلق وللقيوم المطلق، ومن كانت له الحياة الأصلية والقيام الأصلى بالنفس وبالغير، أن ينام أو تصيبه سنة ؟، ولو نام لحظة لانهار الوجود بأكمله، سبحانه وتعالى عما يصفون.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

ليس لهم شىء من علومه ومعرفته و غيبه إلا ما قدرته المشيئة لهم أن يعلموه وإلا ما سمح به كرسيه من العلوم الفائضة على الأرواح القابلة للاستعداد والتلقى، كأرواح الأنبياء والعارفين بربهم.

واعلم أن الأنبياء كنبينا محمد ﷺ، له اطلاع على بعض ما يتوهم أنه لا يعرفه من ظاهر النص كمعرفته بحقيقة الروح وبموعد قيام الساعة، وببعض أسرار الربوبية التى لم تكن إلا لسواه هو ﷺ.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

أى لا ترغم أيها العارف أحداً على الخروج عن طوره الذى أعده الله له، جفت الأقلام وطويت الصحف، فلا تتعب نفسك فى تعديل العين، وانظر إلى حقيقة ما أعده الله لها وفيها، وقد قيل أزلاً:

﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾، فلا تكره أحداً، فإنه قد تبين الرشد من الغى، واعلم أن السر الحامل على عدم استطاعة أحد من الأكابر تغيير حقيقة العين الفاسدة، هو حدود الربوبية، وهو مقام العزة الذى أبى أن يغير صنعته إلا نفسه هو سبحانه، فعلمه القديم أراد شيئاً، والرحمة الفائضة من ذوات الرسل أرادت شيئاً آخر فافهم.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

يخرجهم من ظلمات النفس ومن ذل الحجاب إلى مشاهدة العالم الأعلى، والتحقق من معرفة أنفسهم، فإن النبيه من عرف نفسه فى هذه الدار وانخرقت له الحجب العلوية.

فأخبرنا الحق سبحانه أنه ولينا فى هذا الشأن، وهو المتولى لهذا الشأن فى إخراج أنفسنا الأمارة من الظلمات إلى النور، واعلم أنه لابد من وجود شيخ واصل فى الطريق إلى الله عز وجل لكى يخرج لك

نفسك الأمارة من الظلمات ويعرفها حضرة ربها.

واعلم أن البحث عن حقيقة الشيخ الواصل أفضل من بحث المريد عن طعامه وشرابه، لكونه هنا بحث عن شيء يسد به حاجة الروح ليطهرها من رين الأغيار وأقذار الأكوان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

ولما كان الأنبياء هم أفضل من أوتى لغة الخطاب وأحسن من عرفتهم الحضرة إقامة الدلائل والبراهين، فإنه ﷺ قد اختصر له الكلام اختصاراً، وأوتى جوامع الكلم، فكان لا يستطيع جاهل متغطرس مثل نمروذ هذا وغيره أن يقطعهم بحجة كلامية أو أن يقيم عليهم البراهين التعجيزية، يقول سبحانه لحبيبه سيد الخلق ﷺ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى بتلك البراهين القاطعة التى لا تقهر، وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ فكأن المناظر لهم فى الحقيقة إنما يناظر الحق نفسه، لكونه ناظر من لا ينطق عن الهوى فافهم.

وفى ذات مرة جاء رجل إلى شيخنا محمد الحافظ التجانى ﷺ.

وقال له: أخبرنى كيف تدور بنا الأرض ولا نحس بها وهى تدور؟.

فقال له: أرأيت لو أتينا بكرة كبيرة ووقف عليها نمل كثير وحركناها ببطء أرأيت ذلك النمل هل يحس بحركة الكرة وهى تدور؟.

فقال: لا

فقال: فكذلك من على ظهر الأرض كيف يحسون بحركتها.

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

يقول ﷺ ((**نحن أولى بالشك من إبراهيم**)) وقد ظلت ولا زالت أفئدة العارفين تحوم حول رؤية كيفية النشأة، وهو ليس من باب الشك، بل من باب التحقق بالمعرفة فى رؤية النشأة، فالعارف كامل الإيمان إجمالاً، ولكن أراد التفصيل، ورؤية سريان التوليد فى الكون، فطالب الحق بأن يحققه بتلك النشأة، ولذلك لما طالب هذا العارف ربه بهذه الرؤية قيل له: أو لم تؤمن ؟ قال: بلى أى آمنت بك إيماناً غيبياً

إجمالياً ولكن بقيت قضية ــ ليطمئن قلبى.

أى أن ترينى تحققاً شهودياً رؤية توالد الأعيان، ولذلك قال محمد ﷺ: معبراً عن هذا المقام: ((**نحن أولى بالشك من إبراهيم**))، أى بالتحقق بتلك الرؤية الشهودية، وذلك لسبقه ﷺ لغيره فى المعرفة، فهو الذى تحقق بتلك الرؤية قبل غيره من الأنبياء وأهل المعرفة فافهم، فكأنه قال ﷺ: نحن أولى بالمعرفة من غيرنا لسبقنا الكل، وهو ما ورد فى الحديث جابر ﷺ: متى كنت نبياً يا رسول الله ؟

قال: وآدم بين الروح والجسد. وقد أخبرنا شيخنا العارف الكبير سيدى إبراهيم صالح ﷺ قال: قل أن يجود الزمان بأمثال ابن عربى لكونه دخل المصنع ورأى وتحقق، بينما الكل يشاهد من الخارج.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

اعلم أن كل هذه الآيات فيها تحذيرات للعارف فى أن لا يرى عطاءه للغير من عند نفسه، بل يرى عين العطاء من عند الله تعالى،

وإنما هو واسطة لإرسال ذلك العطاء على يديه، يقول ﷺ: ((**إنما أنا قاسم والله معط**)) أى أنا أقسم عطايا الحق عليكم، بينما المعطى الحقيقى هو الحق سبحانه.

فيجب على الفقير أن لا يمن على أحد بعطاء أعطاه له، حتى لا يحبط عمله بسبب تلك الرؤية القاصرة.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

لكونه العدو الحقيقى للعارف السالك، ولذلك حرصتُ دائماً على أن لا يضيع منى شيئان: مالى ودينى، فإن الملعون يريد للمؤمن أن يمد يده للخلق، وأن يذل نفسه بالسؤال، ويخلق له أسباب إضاعة المال بطرق شتى كالتبذير والإسراف والتباهى وغير ذلك.

ودائماً يبحث للمؤمن عن مزالق يوقعه بها فى مهاوى الذل والخطيئة والفحشاء.

فمن هنا حذرنا الحق بهذين التحذيرين الواردين فى الآية الشريفة، بأن الملعون يعدنا بالفقر والفحشاء، وهو رمز فى حقيقته إلهى بأن اللعين يريد أن يضيع من المؤمن الدنيا والآخرة فافهم.

وقد كان العارف أبو الحسن الشاذلى ﷺ يأمر مريديه بأن يجمعوا المال، فسُئل عن ذلك ؟

فقال: حتى لا تذلوا لأحد بذل السؤال.

وقد كان الصحابة إذا وقع سوط أحدهم ــ كما حكى ذلك عن سيدنا الصديق أبى بكر ﷺ ــ نزل من فوق بعيره وتناوله بنفسه حتى يقى نفسه ذل سؤال أحد فى أن يناوله السوط.

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

اعلم رحمك الله أن حقيقة الحكمة أنها إنزال الأمور فى منازلها الإلهية التقديرية والعرفانية، وعدم الشذوذ عن الميزان الكونى والخروج عنه.

واعلم أن كل نبى حكيم وليس كل حكيم نبياً، فالنبوة أعلى وأرقى من الحكمة، فالحكمة مندرجة فيها ــ أى فى النبوة ــ ولذلك قيل عن الخضر عليه السلام: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، وقيل فى لقمان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾.

وهؤلاء الاثنان ليسا بأنبياء، برغم أنهما أوتيا الحكمة الربانية فافهم.

واعلم أن الحكيم لا يستنبط من العين التى يستنبط منها النبى والولى، فذاك مشرب أرقى بكثير، فإن المعرفة هى ذروة العلم وسنامه، وأما الحكمة فيدخل فيها القياس العقلى والاستنباط البرهانى، بخلاف العارف الذى تقدم له المعرفة على طبق من الذهب.

ولذلك لو تناظر حكيم وعارف لاختلفا فى قياس الأدلة وفى تحقيق المقولة، فالأول ينطق عن البرهان العقلى والثانى ينطق بالله عن الله.

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

ليس الهداية من صنعتك أنت يا محمد وإنما هى من صنعة الربوبية، ومن شؤون العزة الإلهية، وقد تكلمنا كثيراً على هذه القضية فى غير هذا الموضع.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴿٢٧٣﴾ ﴾

وهى صفة المجاهدين الأخفياء، فإنهم حصروا أنفسهم فى مجاهدة النفس والعدو الباطنى، وقصروا رؤيتهم فى الأكوان على رؤية هذه المجاهدة، فهم لا يستطيعون ضرباً فى الأرض لأجل الاكتساب والارتزاق، واكتفوا بإقامتهم على باب الله لمقابلة هذا العدو، الذى يريد أن يحجب النفس فيهم عن الترقى إلى حضرة الله عز وجل، فهؤلاء رفعتهم الهمة فيهم ــ برغم فقرهم ــ إلى أن الحق سبحانه زين ظواهرهم كما زين بواطنهم، فرآهم الرائى أغنياء من شدة تعففهم عن رؤية الأغيار الكونية وتعلقهم ببارئهم .

ولذلك قال ﷺ ((**رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**)).

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴿٢٧٣﴾ ﴾

معرفة باطنية شهودية كشفية، كما أخبر شيخنا محيى الدين ﷺ فى الفتوحات أنه كان بسوق فاس فرأى رجلاً يغربل الحناء، فكشف له أنه القطب، وكان إذا غاب لم يفتقد وإذا رؤى لم يؤبه له وإذا مرض لا يعاد، فجاءه مسرعاً وقال له استرنى يا محمد .

﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴿٢٧٣﴾ ﴾

بل يسألون الحق سبحانه وتعالى إلحافاً، فمن يكون العدم حتى تتوجه إليه همتهم ويسأله .

وهذا كالذى جاء إلى السيدة الحكمة العاقلة رابعة العدوية رضى الله عنها بعطاء لها، فقالت له: لى أربعون سنة ما سألت الدنيا من خالقها فكيف أسألها من المخلوق.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

وهم أقطاب الإنفاق ،الذين ينفقون أموالهم فى الليل والنهار سراً وعلانية، كان منهم عثمان بن عفان وأبو بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وكان منهم ممن بعدهم أبو العباس بن العريف ﷺ قرأت فى أحد كتبه أنه نال مقام القطبانية بالإنفاق، وقال: ما وجدت فى مثل الإنفاق فى الوصول إلى حضرة الله.

وكان من هؤلاء الأقطاب مولانا وسيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجه الذى قيل فيه: ﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ﴾.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا الخطاب الشريف موجه للخواص، فإن الحق سبحانه مطالب للخواص بمحاسبتهم على الخطرات النفسية، وهم فى هذا بخلاف العوام فإنهم غير مطالبين بخطاب هذه الآية، ولذلك قال علماء الظاهر من المفسرين بأن هذه الآية نسخت بقوله سبحانه:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا

﴿ ٱكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

وفى الحقيقة أن الآية لم تنسخ فى حق الخواص وإنما نسخت فـــى حق العوام.

وقد أخبرنى شيخنا عبد المجيد الشريف ﷺ بأنه لا يصل واصل إلى حضرة الحق سبحانه، وفيه خطرات وهمٌ بالمعاصى والذنوب، بل أن ذلك ممتنع فى حق أهل الديوان وأهل النوبة فافهم.

obeikandl.com